البناء العقلي للغة من الإنتاج إلى التواصل
دراسة في الخصوصية التركيبية للغة العربية وأسسها العصبية[1]

عبد الرحمن محمد طعمة

هذه دراسة في الدرس اللساني المعاصر، تنتمي إلى حقل اللسانيات العصبية التجريبية، وتعالج قضية اللغة البشرية من منظور عرفاني؛ بحيث يكون البحث مُركِّزًا على علاقة اللغة بالدماغ البشري، من أول عمليات الإنتاج والتكوين الداخلية حتى التلفظ والتواصل على الألسنة. وقد فرضت طبيعة البحث أن تتقاطع الدراسة مع عدد من العلوم الأخرى، مثل فسيولوجيا الأعصاب الطبية، وبعض نتائج الدراسات السيكولوجية العصبية، ونظرية الإبستمولوجيا العامة بتداخلها المنهجي مع علوم الفيزياء والرياضيات والفلك ... إلخ، كما تعرضت المباحث لمسائل أنثروبولوجيا اللغة ونظريات الحفريات البحثية الفاحصة للدماغ (الأركيولوجيا) والتطور ومسائل بيولوجيا اللغة والجينات الوراثية وعلوم الأحياء ... إلخ، فاللسانيات العصبية العرفانية هي مجال واسع يجمع بين كثير من العلوم التجريبية، بغرض الفهم الشامل للغة الإنسانية الممثلة لقمة الإعجاز الإنتاجي للعقل البشري وتطور قشرة الدماغ.

وعليه، فقد جاءت الدراسة في خمسة فصول كبرى، عالج كل فصل منها مجموعة من القضايا بصورة توفيقية ترجيحية في كثير من الأحيان، نظرًا لصعوبة هذه المسائل وعدم الفصل فيها فصلًا نهائيًا من قبل العلماء.

جاء الفصل الأول بوصفه مقدمةً تمهيدية تبين بعض القضايا التأسيسية في الدرس اللساني العرفاني العصبي، من مسائل تجنيب اللغة في الدماغ، ومطاطية الدماغ البشري وقابليته للتعلم، والنيورون المرآة Mirror Neuron System ودوره في المحاكاة وتطور اللغة واكتسابها، وقضية اكتساب اللغة من منظور عصبي تجريبي متطور، وبعض نظريات إدراك الكلام المعاصرة، وقضية اللغة والمحمول الفكري الذهني، وانتهى الفصل ببيان البارادايم اللساني المعاصر وموقعه من الخريطة العلمية المعرفية للعلوم.

ثم جاء الفصل الثاني معالجًا لمسائل المحطات التشغيلية النيورونية للغة الإنسانية، وقد امتد ليشرح كل ما له علاقة بتنسيق إنتاج اللغة وإخراجها، وبين بجلاء عدم مركزية اللغة في الدماغ في منطقتين فقط (٤٥/٤٤) أو منطقتي بروكا وفيرنكه، كما كان الاعتقاد السائد، واقتضى ذلك شرحًا عصبيًا تشريحيًا لكثير من الأجزاء في سيمفونية الأداء العصبي الوظيفي، كما أطلقنا عليها، مشفوعًا بكثير من صور الأشعة الطبية من الرنين والبوزيترون Positron, fMRI ...إلخ، التي أوضحت بجلاء هذا التكامل العصبي التام بين النصفين الدماغيين فيما يخص وظائف المخ عمومًا ووظيفة اللغة تحديدًا.

وانتقل الباحث بعد ذلك إلى الفصل الثالث لمعالجة قضية الجينوم اللغوي وبيولوجيا اللسانيات، لارتباطها الوثيق بمسألة تطور اللغة وانتظامها داخل الدماغ البشري، وبَيَّنَ كيفية سيطرة القانون الجيني على سيرورة العملية اللغوية برمتها، فإذا كانت المحطات النيورونية هي البنية العصبية الحاملة

(١) نُوقشت هذه الرسالة المقدمة من الباحث: عبد الرحمن محمد طعمة، المدرس المساعد بقسم اللغة العربية، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، لنيل درجة الدكتوراه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وقد تكونت لجنة الحكم والمناقشة من: أ. د. وفاء كامل فايد (مشرفًا)، وأ. د. إيمان السعيد جلال (مناقشًا)، وأ. د. عبد الكريم محمد حسن جبل (مناقشًا)، وقد مُنح الباحث درجة الدكتوراه بتقدير "مرتبة الشرف الأولى".

للعمل كله، فإن الجينوم هو القانون المسيطر المتحكم في هذه السيرورة، كما أوضحت الدراسة ارتباط الدماغ بالكون كله فيما يختص بفرضية الوحدة التشكيلية للموجودات، ولم نستغرق الكلام فيها كثيرًا نظرًا لطبيعة الدراسة وحجمها.

ثم انتقلت الدراسة إلى الفصل الرابع لمعالجة مسألة المعجم الذهني والذاكرة المعجمية وكيفية عمل الدماغ فيما يخص بناء الوحدات الأولى المُشَكِّلَة للمفردات اللغوية، وعرض كذلك ميكانيزمات الحفظ والاستدعاء وما يرتبط بذلك من عمليات ذهنية واسعة، وما هو مطروح أيضًا من فرضيات علمية بهذا الخصوص، وكيفية الاستفادة من كل هذا في تحسين صناعة المعجم التعليمي، وما اقترحه الباحث من أطلس شامل للغة العربية، مؤسَّس على نتائج هذه المعالجات الجديدة.

وانتهت الدراسة بالفصل الخامس المخصص للأبنية النحوية ونظريات الدلالة العرفانية، فبيَّن ما هو النحو العرفاني الذهني، وما هي فرضياته، وما هي كيفية الاستفادة منه في التحليل اللغوي المعاصر، لا سيما الحاسوبي الآلي، كما عرض لنظرية **المزج المفاهيمي** عند تورنر، **والدلالة التصورية والاستعارة العرفانية عند** لايكوف وجونسون، ضمن كثير من الجهود التطبيقية التي تبين بجلاء ارتباط الدرس اللساني المعاصر بما سبق عرضه من مباحث تشريحية فسيولوجية، وعلمية متداخلة، وأنه لا غنى للتحليل اللغوي وصناعة المعاجم والمدونات عن هذا الفهم التأسيسي.

وقد قدم الباحث أكثر من ٧ **تجارب تطبيقية** قام بها بنفسه أثناء التدريس، حاول فيها تطبيق كثير من النظريات التي وردت في فصول الدراسة، وعرض نتائجها، واقترح على أساسها، واستئناسًا بتجارب أخرى وفحوصات منوعة زخرت بها مباحث الدراسة، أن تتوحد الجهود لأجل تطوير وسائل التعليم على المستويين البيداجوجي الديداكتيكي المعمول بهما في دول المغرب العربي والدول الأجنبية، لكنهما بحاجة ماسة إلى فهم فسيولوجي عصبي، نرجو أن يكون قد قدمت الدراسة فيه شيئا مفيدا.

وبهذا، فقد حملت الدراسة مهمة شاقة لمحاولةِ تأسيسِ منهجٍ تحليليٍّ جديدٍ، يتغيا الجمع بين روافدَ شتى من حقول المعرفة المعاصرة، سعيًا لنمذجة النمطين المنهجيين الكبيرين، اللذَين وضعهما "كانط"، وأطلق على الأول منهما المقاربة الجمعية التقنينية Nomothetic approach مخصصًا إياه لوضع القانون العام الواصف للظواهر، وجعله للعلوم الطبيعية، والمقاربة الفردية Idiographic approach ممثلا للمعالجة التخصيصية التفصيلية للقوانين العامة، وجعله للعلوم الإنسانية، وقد قاربنا بينهما وطوَّرنا في الأدوات الفاحصة أثناءَ المعالجات الخاصة ببنود هذه الدراسة، لأجلِ جسرِ الفجوات المعرفية، التي لم تعد قائمةً بين مختلف العلوم في نظرية المعرفة المعاصرة.

وهذه الدراسة تقع في مجملها – وفق البناء العلمي المنهجي لها – ضمن إطارين كبيرين، هما: النموذج المعياري النيورو– عرفاني، أو العصبي العرفاني، الذي يبحث قوانين اللغة الداخلية وتفاعل **المدخلات**، وقد غطى هذا الجانب الفصلان الثاني والثالث (التشريح العصبي للغة ومحطات التشغيل + قوانين السيرورة الجينية). والنموذج المعياري النيورو– لساني، وهو الذي يختص **بالمخرجات** ونتاج عمليات الاشتغال الذهني للغة داخل الدماغ البشري، وقد غطى هذا الجانب الفصلان الرابع والخامس (المعجم الذهني + الأبنية النحوية الدلالية).

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل،،،